الصراع، بخاصة، فانه أصبح من غير المجدي، بالنسبة الى الكيان الاستيطاني الصهيوني، الادعاء بأن فلسطين هي أرض بلا شعب. بعبارة أخرى، أصبحت المشكلة السكانية في هذا الكيان أكبر من أن يتمّ تجاهلها. وعلى حدّ التعبيرات الاسرائيلية، «لقد أصبح الشبح السكاني يطارد زعماء اسرائيل. وفي الآونة الأخيرة، لا يكاد يمر أسبوع دون صدور بحث، أو مقال، يعالج هذا الموضوع»[١٦]. وهكذا، فانه، بمرور الوقت، توفّر تراكم معرفي، ومعلوماتي، حول النظرة الاسرائيلية الى طبيعة المشكلة السكانية، من ناحية، وحول أسلوب مختلف القوى السياسية الاسرائيلية في الاقتراب منها، من ناحية ثانية، ثمّ حول الحلول والوصفات العلاجية التي تطرحها هذه القوى للمشكلة، من ناحية اخيرة. ومن حيث طبيعة المشكلة السكانية، نلاحظ، مع المختصين الاسرائيليين، أن للمشكلة ملامح عدة:

الملمح الأول

هو وجود نسبة كبيرة ممّن يسمون بعرب ١٩٤٨ داخل الكيان الاستيطاني الصهيوني أو داخل ما يسمى «الخط الأخضر»[١٧]. فقد بلغ حجم هذه الشريحة السكانية، طبقاً لمعلومات المكتب المركزي للاحصاء في اسرائيل للعام ١٩٨٧، نحو ٦٥٠ ألفاً، بنسبة ١٥,٢ بالمئة من سكان اسرائيل[١٨]، وطبقاً لمصادر أخرى، بلغت هذه النسبة نحو ١٨ بالمئة[١٩]، ومع أن البروفيسور ميرون بنبينستي يقطع بأن عرب ١٩٤٨، ومن ثمّ نسبتهم بين سكان اسرائيل، أكبر من الأرقام التي يعلن عنها مكتب الأحصاء[٢٠]، فإن الرقم المذكور يظل كبيراً أيضاً.

وممّا يؤدي الى تفاقم هذا الملمح، هو أن هذه النسبة قابلة للزيادة، لأن معدّل التكاثر والزيادة الطبيعية في الوسط العربي داخل «الخط الأخضر»، يتفوّق، سنوياً، على مثيله اليهودي الذي لا يتجاوز ١,٧ بالمئة[٢١]. ومصدر القلق من هذا الملمح يعود الى أنه، في الأمد الطويل، سوف يهدّد «نقاء الدولة اليهودية»، بل وربما يهدّد استقلالها أيضاً.

إن تزايد نسبة السكان العرب داخل حدود ١٩٤٨ يتزامن، ويتوازى، مع صعود في الشعور الوطني والقومي عندهم. والأمثلة على هذه الظاهرة كثيرة، منها ذلك البيان الذي صدر عن مؤتمر كبير عقده عرب ١٩٤٨ في مدينة الناصرة، بتاريخ الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٨٠، الذي أعلنوا، في نهايته، «أنهم جزء حيّ وواع ونشيط من الشعب العربي الفلسطيني، لم يتنازل، ولن يتنازل، عن ترابه الوطني»[٢٢]؛ كما يشكل تضامن عرب ١٩٤٨ مع انتفاضة إخوانهم في الضفة والقطاع، منذ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٧، مثلاً أكثر بروزاً على صعيد الشعور الوطني عندهم. وقد اعتبر بعض القياديين الصهيونيين أن هذا الشعور الوطني، فضلاً عن تركز الوجود العربي في مناطق محددة داخل «الخط الأخضر»، قد يغريهم، يوماً، بفكرة الاستقلال الاقليمي، بسبب توفر البيئة السكانية والجغرافية الملائمة[٢٣].

الملمح الثاني

يتلخّص هذا الملمح في الخلل الشديد في التوازن السكاني العام داخل الكيان الاستيطاني الصهيوني لصالح العنصر العربي، والذي بدأ يتعمّق بعد توسّع هذا الكيان باحتلال الضفة والقطاع العام ١٩٦٧. إذ أصبح العرب الفلسطينيون، منذ وقف إطلاق النار في ذلك العام، نحو ثلاثة أضعاف حجمهم السابق ضمن حدود العام ١٩٤٨[٢٤]. وطبقاً لبيان مكتب الاحصاء المركزي في العام ١٩٨٧، بلغ عدد سكان الضفة الفلسطينية من العرب ـ دون التحدث عن القدس الشرقية ـ نحو ٨٥٠